أسلوب الكندي

أنبتتْ بغداد ، خلال فترات طويلة من عمر الزمن ، صفوة مختارة من الأعلام كانوا مصابيح نيّرة للعقل البشري ، وما زال انتاجهم الفكري : شعراً ونثراً ، علماً وفناً ، حكمةً وفلسفةً ، يفيض بالقوة والإبداع ، على الرغم من مرور نيّف وعشرة قرون على تدبيج تلك الروائع .

وكتبنا القديمة تزخر بالآيات البيّنات التي كتبها مفكرو العراق وأدباؤه في العصر العباسي ، وهي تؤلف بمجموعها دعائم التراث الفكري الذي أعطى الإنسانية ثمرات يانعة من أطيب الثمرات .

ولا مجال لتعداد الكتب والرسائل والموضوعات ، ولا أسماء الكتّاب والشعراء والمؤرخين والفلاسفة والحكماء ، فكل واحد منهم دنيا مستقلة من عبقرية الفكر ، حتى ليفخر انسان هذا العصر ، مهما كانت ثقافته وجنسيته ، بذلك التراث الذي تركه مفكرو العصر العباسي ومدارسه الفكرية بشتى ألوانها ونزعاتها واتجاهاتها والتي حظيت حظوة منقطعة النظير برعاية غير واحد من الخلفاء .

* * *

من أولئك المصابيح الهداة الفيلسوف العربي يعقوب بن اسحاق الكندي[1] الذي

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، الملقب « بفيلسوف العرب » كان شريف الأصل ، عريق النسب ، وكان أبوه اسحاق أميراً على الكوفة للمهدي « ١٥٩ ـ ١٦٩ هـ = ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م » ، والرشيد « ١٧٠ ـ ١٩٤ هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م » . وُلد في البصرة ونشأ ، ثم أتى الى بغداد ، واتصل بالمأمون « ١٩٨ ـ ٢١٨ هـ » ، وأدّب محمد بن المعتصم . وكان عظيم المنزلة عندهم ، أما المتوكل فقد نقم عليه وضربه وأبعده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقدم ، في أوائل عصر النهضة ، على نقل كل ما يلقح الفكر العربي من تراث اليونان العلمي ، فخاض معركة الترجمة بروح مليئة بحب العلم ، في فترة كانت الترجمة ، ولا سيما ترجمة كتب العلوم والفلسفة من الصعوبة بمكان عظيم ، بل كانت أعصى ما يواجهه المفكر العربي الذي يتصدى لحمل أمانة هذه الرسالة الكبرى .

وقد اتفق جميع من ترجم لهذا الفيلسوف العربي الذي دبّجت يراعته عشرات الكتب والرسائل في شتى انماط المعرفة — اتفقوا جميعهم قدماء ومحدثين ، عرباً وأجانب منهم المستشرقون ، على أنه من أفذاذ المفكرين .

ولا علينا ، قبل الإلماع إلى آراء من ترجم له ، وإلى أسلوبه ، أن نمرّ مروراً سريعاً بنشأته ...

فقد توفي أبوه وهو طفل ، فكفلته أمه وكانت ، على ما يظهر ، بعيدة النظر وعلى جانب عظيم من الذكاء ، فلم تشأ ، وهو ربيب نعمة وابن مجد وسؤدد ورئاسة ، وللعلماء مكانتهم المفضلة عند الخلفاء — لم تشأ أن يعيش ابنها إمعةً من الإمعات ، فوجّهته نحو العلم ، ولا سيما ، بعد أن لمست فيه حدة الذكاء وبشائر الألمعية والموهبة المشعّة .

وسار الطفل ، في هـذه الطريق الوعرة ، يعبّ الكثير من علوم ذلك العصر ، حتى إذا شارف فجر الشباب مال إلى تعلم أكثر من لغة واحدة .

وكانت السريانية واليونانية لغتي الثقافة الرفيعة في ذلك العصر ، كما هو شأن اللغتين الإفرنسية والإنكليزية في أوائل عصرنا هذا ، فانكبّ يتعلمها باعتبارهما وسيلة العلماء لنقل آراء أساطين الإغريق ، وما زال مكباً على تعلمها حتى تمكن منها ، وعرف بين معاصريه بأنه في طليعة حذاق الترجمة ، وأصبح اسمه يقرن إلى اسم حنين بن اسحاق ومَنْ هم في منزلته الرفيعة من التراجمة .

ففي كتاب « طبقات الأطباء » نقلاً عن أبي معشر قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« حذاق الترجمة في الإسلام أربعة : حنين بن إسحاق ، ويعقوب بن إسحاق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن فرخان الطبري ... »

* * *

اتقان الكندي أكثر من لغة واحدة حفزه إلى أن يلمّ إلماماً واسعاً بمعارف عصره ، فاجتذبته آفاق العلم إلى رحابها ، وكان لا بد له من الغوص في لجج محيطاتها ، وإذا به إزاء عوالم مجهولة تضيء الفكر بشتى ألوان المعرفة . وحين نهل من تلك الينابيع الصافية ، ولمس جمال تلك الآفاق العلوية التي تنعم بها غير أمته العربية ، رأى أن يعكف على الترجمة ، فترجم بعض الكتب ، ولخص بعضها ، وقرأ ما ترجم غيره ، ثم ألف عشرات الرسائل . وبذلك استطاع أن ينفح أمته بما تنعم به غيرها من شتى ألوان الثقافات .

يقول الدكتور ماكس ماير هوف في بحثه القيم عن « تاريخ التعليم الفلسفي والطبي عند العرب » :

« .. كان أبو يوسف بن إسحاق الكندي المسمّى فيلسوف العرب — كان حقاً ، بحسب ما نعرفه ، أول مسلم أتقن علوم اليونان ، إلى حد يدعو إلى الدهشة » .

« .. وكتب معتمداً في الغالب على التراجم السريانية لعلوم الأوائل ، قرابة ثلثمائة كتاب من تأليفه هو : في الطب والفلسفة والأرسطاليسة ، والفيثاغورية المحدثة والأفلاطونية المحدثة ، وفي الرياضيات والبصريات ، وفي الفلك والآثار العلوية ، والموسيقى والسياسة المدنية والأخلاق وغيرها ، وعن هذا الطريق ساعد على أن يفتح للعرب الطريق إلى علوم الأوائل ، كما هي الحال في التراجم [1] .

(١) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : دراسات لكبار المستشرقين ألّف بينها وترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٥٩ ـ ٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ووصفه ابن النديم في الفهرست [١] بقوله : « فاضل دهره ، وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها ... »

وأشار صاحب كتاب « أخبار الحكماء [٢] » إلى ثقافته العامة بقوله : « كان كثير الاطلاع واشتهر بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ... »

ويقول سليمان بن حسان وهو ابن جلجل الأندلسي : « إن الكندي كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ، وقيل إنه كان يملك جانباً من علوم الإغريق والفرس ، ويعرف حكمة الهند » .

واعتبره المستشرق ماسينيون ، إمام أول مذهب فلسفي إسلامي في بغداد ، وله أبحاث طريفة ، ثم اليه يرجع الفضل بعد ذلك في تحرير جملة من التراجم العربية لمصنفات يونانية في الفلسفة [٣] » .

* * *

هذا الفيلسوف العربي المعلم (الأنسيكلوبيدي) الثقافة أعطى مواهبه لشتى أنماط المعرفة فترجم منها وكتب فيها وغاص في لججها وترك حشداً كبيراً من الكتب والرسائل لم يصل إلينا منها غير النزر اليسير — هذه الرسائل والمؤلفات بأي أسلوب كتبت ؟

هل تتميز بالسهولة والوضوح والإشراق ؟

هل واتته لغته وهو يترجم عن السريانية واليونانية ، ولا سيما حين غاص في بحوث الطب والفلك ومعضلات الفلسفة ؟

---

(١) ص ٢٥٥ .
(٢) ص ٤٦ .
(٣) مجلة مجمع اللغة العربية : مصر ج ٥ ص ٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وللترجمة من لغة إلى لغة شروط قاسية ، ولا سيما إذا كانت تتناول علماً وفناً وفلسفة .

ففي عصرنا هذا ، بالرغم من تطورنا الفكري ، وبالرغم من وجود تراجمة أفذاذ لا يقل مستواهم الفكري عن المؤلفين الذين ينقلون آثارهم ، وبالرغم من الهيئات العلمية التي يتولى بعض أفرادها نقل لغة العلم إلى لغتنا ، وتعريب الكثير من المصطلحات العلمية والفنية ، وبالرغم من حرص المجامع العلمية التي تظهر التشدد فيما إذا شذ بعض المترجمين عن روح اللغة ، وبالرغم من أن الترجمة عن اللغات الأجنبية قطعت شوطاً بليغ الأثر في تطورنا الفكري فما زال الخلاف مستحكماً حول الكثير من الألفاظ والمصطلحات العلمية والفنية والنفسية والفلسفية وغيرها وغيرها ... وهذا الذي حدا بمجمع اللغة العربية في مصر ، (وهو يضم جهابذة علماء العرب والمستشرقين) على أن يشكل عدة لجان من العلماء المختصين « لوضع مصطلحات عربية في لفظها وفي معناها تحل محل المصطلحات الأجنبية » ومنهجه ، في وضع هذه المصطلحات « التنقيب عنها أولاً في كتب اللغة والعلم القديمة ، فإذا وجدها اعتمدها ، وإذا لم يجدها ، لجأ إلى الاشتقاق أو المجاز ، أو النسب أو التصغير ، أو نحو ذلك من القوانين اللغوية حتى تكون ثروة اللغة مستمدة من أصولها ومواردها ، فتستغني بها عن سواها ، وتستطيع أن تثبت أمام جيوش الألفاظ الاجنبية التي تحاول أن تغزوها لتحل محلها [1] » .

هذا ما نحاوله الآن ، وبالرغم من كل ذلك فما تزال وجهات النظر مختلفة في الكثير من الألفاظ والمصطلحات العلمية التي ننقلها عن لغات الغرب إلى لغتنا .

وبديهي ، والعرب في بدء اتصالهم بغيرهم من الأمم التي سبقتهم في ميادين الفكر الحضاري والتأليف العلمي والفلسفي — بديهي ألا تمتنع الترجمات ،

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : مصر ج ٥ ص ٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا سيما إذا كانت خارجة عن نطاق المنثور والمنظوم من روائع الأدب — بديهي الا تتمتع هذه الألوان من مائدة الفكر بوضوح الأسلوب وسهولته ، وبصفائه وإشراقه ، بل بالدقة اللازمة لصوغ الفكرة وصقلها كما كتبت بلغتها الأصلية .

* * *

لا أريد في هذه التوطئة أن احكم حكماً قاسياً على أسلوب الكندي الذي طعن فيه بعض معاصريه دون أن يلتمسوا له الأعذار التي تلتمس لمن يتصدى لترجمة شتى أنماط الفنون والعلوم ، ولا سيما والكندي لم يقصر جهده على الترجمة فحسب بل ألف وصنف وكان من المبرّزين .

* * *

ففي كتاب « نزهة الأرواح » لشمس الدين الشهرزوري :

« ذكر أبو سليمان السجزي : أنه اجتمع هو وجماعة من الحكماء عند الملك أبي جعفر بن بويه بسجستان ، فجرى حديث فلاسفة الإسلام ، فقال الملك : ما وجدنا فيهم ، على كثرتهم ، من يقوم في أنفسنا مقام سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس .

فقيل له : ولا الكنديّ ..

قال : ولا الكنديّ .. فان الكنديّ على غزارته ، وجودة استنباطه رديء اللفظ ، قليل الحلاوة ، متوسط السيره ، كثير الغارة على حكمة الفلاسفة .. » (١)

---

(١) عن نسخة مصورة بمكتبة الجامعة المصرية ص ١٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الرأي الذي أطلقه الملك البويهي تناقله غير واحد ممن عرضوا إلى حياة الكندي وأسلوبه وقد انتهوا ، إلى ما انتهى إليه ، عدا ، مؤلف معاصر عني عناية كبرى بنشر بعض كتبه ورسائله وتحليل الغامض من آرائه وفلسفته ، أريد به الدكتور عبد الهادي أبو ريده الذي شجب هذا الرأي بقوله :

« ... لا شك أن في كلام هذا الأمير تحاملاً كبيراً ، لعله ناشئ من وجه ما ، عن أن الأمير البويهي أعجمي اللسان ، ثم هو ، بعد هذا ، ليس بالفيلسوف الذي يتذوق الأسلوب الفلسفي ...

« ولا يمكن الحكم على أسلوب كاتب إلا مع مراعاة موضوع الكتابة ، وطبيعة الأسلوب الذي يلائمه ، والاصطلاح الذي لا بد ان يجري عليه الكاتب في ذلك . فليس أسلوب الأديب الذي يصف المشاعر الإنسانية كأسلوب عالم الطبيعة الذي يتكلم عن عالم المادة وأحواله وعلاقاته ، ولا هو كأسلوب العالم المنطقي أو الرياضي الذي يصوغ قياساً ، أو يقيم برهاناً ، أو ينشئ استدلالاً بوجه عام ، ولا هو كأسلوب من يعرض الفلسفة ، ويقيم الدليل على قضية فلسفية ... » (١)

وكما اتهمه الأعاجم برداءة اللفظ لرداءة أفهامهم وجد من اتهمه بجهل أبسط قواعد اللغة العربية .

روى عن ابن الأنباري أنه قال : ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له : اني لا أجد في كلام العرب حشوا .

فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟

فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون إن عبد الله قائم ... ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ... والألفاظ متكررة والمعنى واحد .

(١) رسائل الكندي الفلسفية ص ٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم : عبد الله قائم ، إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبد الله قائم ، جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبد لقائم : جواب عن إنكار منكر قيامه . فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني ...

قال : فما أحار المتفلسف جواباً !..

لا ريب أن أحد خصوم الكندي قد اختلق هذه القصة ، وقد كان له حساد وخصوم كثيرون ، حسدوه لمقامه الرفيع عند الخلفاء من جهة ، ولنزعاته الفلسفية المتحررة التي كانت تعتبر عندهم هرطقة وزندقة من جهة أخرى (١) ، ولهذا ، أو لغير ذلك من العوامل ، كان يرمى بالكثير من المثالب ومنها هذا المأخذ الذي ينقضه تبحره بعلوم العربية ، إذ ليس في مصنفاته ما يدل على جهله اللغة لدرجة تفوته فيها مثل هذه البديهيات ولا سيما ، وقد كان ، كما تشير الروايات ، من نقاد الأدب والشعر ، وقصة نقده لأبي تمام حين

(١) كان ثمة عداوة فكرية بين الكندي وبعض رجال الدين الذين اتهموه بالإلحاد كما اتهمهم هو بالاتجار بالدين وبتأويل الفلسفة تأويلاً سيئاً ، وارجع ذلك الى « ضيق في فطنتهم عن أساليب الحق ، وقلة معرفتهم بما يستحق ذوو الجلالة في الرأي والاجتهاد في الانفاع العامة الشاملة » ثم « لدرانة الحسد المتمكن من أنفسهم البهيمة ، والحاجب بسدف سجوفه أبصار فكرهم عن نور الحق » . وقد روى المسعودي في مروج الذهب قصيدة لأحد الشعراء اتهم فيها الكنديّ بالانتساب الى اليونانيين ودس آراء الملاحدة من الفلاسفة على الإسلام جاء فيها :

أبا يوسف اني نظرت فلم أجد على الفحص رأياً صح منك ولا عقدا
وصرت حكيماً عند قوم اذا امرؤ بلاهم جميعاً لم يجد عندهم عندا
أتقرن إلحاداً بدين محمد لقد جئت فينا يا أخا كندة إدّا
وتخلط يوناناً بقحطان ضلة لعمري لقد باعدت بينها جدا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أنشد احمد بن المعتصم قصيدته السينية مشهورة [١] .

وشكّ الأستاذ أبو ريدة أيضاً بهذه القصة فقال : « ولا يعقل أن الكندي العربيّ الصميم الذي أقام بالبصرة حيث وجد نحاة كبار ، وتأدب ببغداد ، ودرس المنطق ، يفوته إدراك الفرق في المعنى بين هذه العبارات ، ولا بد أن يكون في هذه الرواية خطأ ، خصوصاً لأن العالم اللغويّ المذكور توفي بعد الكندي بأربعين عاماً ، أو أن يكون المقصود كنديًّا آخر ... ذلك لأن الكندي فيلسوف العرب يذكر في رسائله ما يدل على علمه باللغة ، فهو مثلاً يشترط فيمن يفسر آيات القرآن تفسيراً فلسفياً أن يكون عليماً بمواقع القرآن حقيقة ومجازاً ، هذا إلى أنه يعطينا مثالاً لتفسير القرآن يدل ، إلى جانب تحليل الأصول الفكرية ، على نفاذ في فهم المعنى اللغوي ، كما أنه يذكر شواهد من الشعر مبيناً ما فيها من ضروب المجاز » [٢] .

* * *

(١) في كتاب « سرح العيون » لابن نباتة المصري حكي : أنه كان حاضراً عند أحمد بن المعتصم وقد دخل أبو تمّام ، فأنشده قصيدته السينية ، فلما بلغ الى قوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال الكنديّ : ما صنعت شيئاً .

قال : كيف ؟

قال : ما زدت على أن شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب ، وأيضاً ان شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح من كان قبله ، ألا ترى الى قول المكوّك في أبي دلف ؟ :

رجل أبر على شجاعة عامر بأساً وغبر في محيا حاتم

فأطرق أبو تمام وأنشد :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

ولم يكن هذا في القصيدة فتعجب منه ، ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك . فقال الكندي : واّوه فانه قصير العمر ، لأنّ ذهنه ينحت من قلبه ، فكان كما قال .. »

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونعود إلى موضوع أسلوبه على ضوء معالجة بعض الباحثين لهذه الناحية :

فالواقع ، أن غموض أسلوب الكندي أو وضوحه شغلا أكثر من مفكر واحد ممن تصدّوا لدراسة كتابه ورسائله ، وكان في طليعة الذين بحثوا هذا الموضوع الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق مدرس الفلسفة الإسلامية في جامعة القاهرة وهو كما نعلم أديب كبير ، حسن الترسل ، جزل العبارة ، مشرق الأسلوب يقول :

« ... والذي يلاحظ في أسلوب الكنديّ ، اعتماداً على المصادر الضئيلة التي وصلت إلينا من مؤلفاته : أن فيه غموضاً يأتي بعضه من أن الألفاظ الاصطلاحية لم تكن استقرت في نصابها وتحددت معانيها ..

ويقول : وقد يكون الغموض من عدم وضوح المعنى في نفسه ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ جلسن في كلامه على نظرية العقل عند الكندي حسبما ورد في رسالته « العقل » الموجودة باللاتينية حيث يقول : « المعاني ضعيفة كأن الكنديّ كان يكابد في امتلاك ناصيتها عناء » (١) .

والواقع ، أن الأصول التي كان يرجع الكنديّ إليها مترجمة كانت إلى العربية أو غيرها ، أو موجودة في لغاتها الأصلية لم تكن تخلو من تحريف ، ومن غموض ، وكان طبيعياً أن يجد الكندي عناء في استخلاص معانٍ منها مستقيمة في نظر العقل ، منتظمة النسق .

وكان جهد الكنديّ في استخلاص هذه المعاني ، مجتمعاً إلى جهده في إبرازها في لغة لم تذلل للأبحاث العلمية ، يظهر في أسلوب الكنديّ ، فيضعف من روعة بيانه حين يقاس بأساليب البلغاء من أدباء العربية في ذلك العهد ،

(1) Gilson (ET) Archives d l'histoire et literouire de moyen age (anné 1929 - 1930) Paris

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويضعف من وضوح معانيه أيضاً مع ميل الكندي للإيجاز ، والاقتصار من الألفاظ على ما يضبط المعنى ويمثله في الذهن مستقيما .

والظاهر : أن الغموض كان غالباً على أساليب المشتغلين بالبحوث العلمية في عصر الكنديّ لأسباب مختلفة يشير إلى بعضها الجاحظ في كتاب الحيوان .. »[1]

كأني بالأستاذ مصطفى عبد الرازق قد أقرّ بغموض أسلوب الكنديّ بعد أن التمس له عدة أسباب أهمها :

أ — أن الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرّت في نصابها وتحددت معانيها .

ب — الغموض في نفس المعاني التي نُقلت عنها .

جـ — كون العربية لم تذلل للأبحاث العلمية .

د — حرص الكندي على ضبط المعنى وتمثيله في الذهن مستقيما .

وقد عرض الدكتور أحمد فؤاد الأهواني إلى هذا الموضوع فقال :

« ... وقد شاع عن الكندي ضعف الأسلوب ، والنزول عن مستوى الأدباء .. وكيف نريد من الكندي حين يؤلف في الهندسة وعلم الهيئة ، وينقل كتب المنطق والفلسفة الأولى أن يصوغها في أسلوب الجاحظ ...

« على أنك تقع في بعض الأحيان على عبارات يبدو فيها الترسل فيرتفع إلى مقام البلغاء ... أمّا الغالب عليه فالغموض والتواء التعبير ومجافاة روح العربية ، ومرجع هذا كله إلى طول النظر في الكتب اليونانية والسريانية مع صعوبة النقل ووعورة الموضوعات ، واصطناع الألفاظ الجديدة للتعبير عن نظائرها في تلك اللغات .

وكان يستحدث في اللسان العربي ألفاظاً جديدة تعبر عن المعاني الفلسفية وليس

---

(١) مجلة كلية الآداب : الجامعة المصرية ج ٢ مجلد ١ سنة ١٩٣٣ ص ١٢٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا بالعمل اليسير [١] » وكذلك عرض الأستاذ أبو ريدة إلى نفس الموضوع فاتجه ، بعد أن درس ما ظفرت به المكتبة العربية من كتبه ورسائله ، اتجاهاً يخالف رأي الدكتور الأهواني ورأي أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق . ومما ذكره بعد أن وطأ لهذه الرسالات بمقدمات وافية قوله :

« .. لا شك أن الكنديّ كان راسخ القدم في علم اللغة ، فنحن نجد أسلوبه قوياً من حيث استعمال الصيغ الاشتقاقية اللغوية التي يدهش لها القارئ الحديث ، فاذا تصفح المعاجم وجد أنها صيغ صحيحة ، وقد اضطررنا أن نشرح كثيراً من الألفاظ في تعليقنا على رسائله .

« وأسلوب الكنديّ ، بعد هذا ، طويل النَفَس فيه بناء للفكرة والاستدلال ، بحيث قد تبلغ الجملة الواحدة أسطراً عديدة ، وبحيث لا يفهمها إلا من كانت له دربة على متابعة سير الاستدلال المنطقي الفلسفي ، وأن طول الجمل ، وما في ثناياها من فواصل اعتراضية قد كان من جملة الأسباب التي أوقعت المترجمين لرسائله إلى اللغة اللاتينية في الأخطاء .. إذ أنهم وقفوا حيث لا يصح الوقوف ، وألحقوا بعض جمل الصلة بما لا يصح أن تلحق به ... على ما بيناه في موضعه من رسالة « في العقل » ورسالة « في ماهية النوم والرؤيا » وهذا كله يظهر في رسائله التي تقدم لها ، فهو لا يحتاج إلى ذكر أمثلة ، ولا يخلو عرض الكندي لأفكاره من وثبات بلاغية صادرة عن قوة الإحساس ، وعن الحماس للفكرة التي يدافع عنها ، كما لا يخلو أحياناً من السجع أو من ضروب التمثيل والمجاز [٢] » ..

* * *

(١) كتاب الكنديّ الى المعتصم للأهواني ص ٣٤ .
(٢) رسائل الكندي الفلسفية ص ٣٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقد تعمّدت من بسط هذه النصوص لأساتذة أعلام معنيين بالفلسفة الإسلامية وبدراسة فلسفة الكندي ، وعلى جانب مرموق من النزعة الأدبية البليغة ، تعمدت أن أشير إلى آرائهم في أسلوبه ، وكان الأستاذ أبو ريده أدق شرحاً للموضوع حين انتهى إلى وصف أسلوبه بأنه « جزل رصين ، قوي الألفاظ ، متين بناء الجمل ، موصول ما بينها وصلاً منطقياً ، وهو لا يخلو من سلاسة يستلذها الأديب الرزين الذي لا يرجح عنده رنين الألفاظ ، ولا العبارات التي تحرك الخيال على كمال بناء المعاني التي هي مجال القوة الفكرية .

ولا شك أن أسلوب الكندي ، من هذا الوجه متأثر إلى حد كبير بطبيعة الدراسة الفلسفية »[1] .

وهذا ما أشرنا إليه في صدر كلامنا ، حين قلنا إن معالجة موضوع أدبي بحت يختلف كل الاختلاف عن الموضوع العلمي أو الموضوع الفلسفي .

فالكندي وقد حذق اليونانية والسريانية وكان كما وصفه القفطي واسع الاطلاع على جميع العلوم ان هذا الفيلسوف العربي لم يجعل الترجمة ديدنه ، بل نقل بعض الكتب ، ثم قرأ علوم وفلسفة ذياك العصر والعصور التي تقدمته ، فهضم أكثرها وفلسف بعضها ، وحين ألف وصنف لم يعمد إلى ترجمة النصوص بقدر ما اعتمد على إدراكه وفهمه لها رغم رعوزة مبناها ومعناها ، فكان يحق ذا ذهن متفتح مشع طاف مختلف الآفاق ، ويظهر أن اهتمامه بالمضمون كان أكثر من اهتمامه بالشكل ، أي إنه اهتم بفك الرموز والطلاسم وكتابتها بلغة سهلة مبسطة لتكون في متناول العقل العربي الذي أقبل بعب من تلك الينابيع الفياضة بلهف وشوق فكان يسوغ بعضها ، ويضيق ببعضها الآخر ، كل انسان بحسب ميوله وثقافته .

---

(١) نفس النص ص ٢٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبديهي أن الذين تجتذبهم روائع الأدب مثلاً غير الذين تجتذبهم المعادلات الجبرية وألغاز العلوم الطبيعية والفلكية .

فهل علينا ، في هذه الحالة ، أن نلتمس إشراق الأسلوب عند العالم كما نلتمسه عند الأديب ؟

وإذا لم نجد عنده سحر الكلمة واشراقها فهل نصف أسلوبه بالالتواء والغموض ؟

أبداً ، فقد كان الكندي بالنسبة إلى معاصريه ، وإلى من اشتغلوا بالعلوم والفلسفة ، واضحاً في بسط الكثير من الآراء والنظريات التي عرض لها .

وما علينا أن نقف وقفات قصيرة مع نبذ من الكلمات التي تركها لنا لنرى أنه كان كثير الدقة في عرض أفكاره في سهولة ويُسر لا يعتورها الغموض ، ولا سيما في الآراء الفلسفية التي لخصها عن فلاسفة الإغريق وأضفى عليها من علمه وأدبه ما جعلها سائغة للفكر العربي .

ففي رسالة النفس التي لخصها لأحد تلامذته عن أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة قوله :

« إن النفس بسيطة ، ذات شرف وكمال ، عظيمة الشأن ، وجوهرها من جوهر الباري عز وجل ، كقياس ضوء الشمس من الشمس ...

« وقد بين — يريد أرسطو — أن هذه النفس منفردة عن هذا الجسم ، مباينة له ، وأن جوهرها جوهر إلهي روحاني مما يُرى من شرف طباعها ، ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب .

« وذلك أن القوة الغضبية قد تتحرك على الإنسان في بعض الأوقات ، فتحمله على ارتكاب الأمر العظيم ، فتضادها هذه النفس ، وتمنع الغضب من أن يفعل فعله ، أو أن يرتكب الفيظ ، وترميه وتضبطه كما يضبط الفارس الفرس إذا همّ أن يجمح به أو يرميه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وهذا دليل بين على أن القوة التي يغضب بها الانسان غير هذه النفس التي تمنع الغضب أن يجري الى ما يهواه ... لأن المانع لا محالة غير الممنوع ، ولأنه لا يكون شيء واحد يضاد نفسه .

« وأما القوة الشهوانية فقد تتوق في بعض الأوقات الى بعض الشهوات ، فتفكر النفس العقلية في ذلك أنه خطأ ، وأنه يؤدي الى حالة رديئة فتمنعها عن ذلك وتضادها ، وهذا دليل على أن كل واحدة منهما غير الأخرى ... »

* * *

وفي مناقشته لآراء فلاسفة الاغريق من أفلاطون الى أفسقورس الى أرسطاطاليس ينتهي ، الى أنه لا مجال لبلوغ النفس أرقى المراتب الا بتطهيرها من الأدناس فيقول :

« ان الانسان اذا تطهر من الأدناس صارت نفسه حينئذ صقيلة ، تصلح وتقدر أن تعلم الخفيات من الغيوب ، وقوة هذه النفس قريبة الشبه بقوة الإله تعالى شأنه ، اذا هي تجردت عن البدن وفارقته وصارت في عالمها الذي هو عالم الربوبية ... »

ثم يخاطب أولئك الذين يجهلون حقائق الحياة ويهملون علوية النفس بقوله :

« فقل للباكين ممن طبعه أن يبكي من الأشياء المحزنة : ينبغي أن يبكي ، ويكثر البكاء على من يهمل نفسه ويهلكها من ارتكاب الشهوات الحقيرة الخسيسة الدنية المموهة ، التي تكسبه الشرة ، وتميل بطبعه الى طبائع البهائم ، ويدع أن يتشاغل بالنظر في هذا الأمر الشريف . والتخاص اليه ، ويطهر نفسه حسب طاقته ، فان الطهر الحق هو طهر النفس لا طهر البدن ، فان العالم الحكيم المبرز المتعبد لباريه اذا كان ملطخ البدن بالحمأة ، فهو عند جميع الجهال ، فضلاً عن العلماء ، أفضل وأشرف من الجاهل الملطخ البدن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالمسك والعنبر ، ومن فضيلة المتعبد لله الذي قد هجر الدنيا ولذاتها الدنية ، أن الجهال كلهم — الا من سخر منهم بنفسه — يعترف بفضله ويجله ، ويفزع أن يطلع منه على الخطأ ...

« فيا أيها الانسان الجاهل ، ألا تعلم أن مقامك في هذا العالم إنما هو كلمحة ، ثم تصير إلى العالم الحقيقي ، فتبقى فيه أبد الآبدين ، وانما أنت عابر سبيل في هذا الأمر ، ارادة باريك عز وجل ... »

نقلت هذه الفقرات من رسالة في النفس لأشير الى أن قارئه يقع في الكثير مما دبجته براعته على الكثير من الفقرات والجمل التي تتميز بالسهولة والوضوح . واذ يعلم أن ذهن القارئ العربي في عصره لما يتفتح لتلك العلوم جنح الى الدقة والسهولة دون أن يخضع كلامه لأنماط الجناس والترصيع التي كانت أشبه بالوشي والتفويف لأنماط من البلاغة العربية .

ومهمة المترجم أو المؤلف الذي يتصدى لنقل أية فكرة من غير لغته أن ينقلها صحيحة واضحة . وهذا ما قام به الكندي الذي لعب أكبر دور في تاريخ الفكر العربي في تلك الفترة حين نصب نفسه أداة لنقل شتى أنماط المعرفة فكان له ما أراد ، وكان من الأوائل الذين استهوتهم فلسفة اليونان وعلومهم فألف فيها وصنف حتى اعتبر فيلسوف العرب بحق . « ولسنا بحاجة الى كثير شرح لنبين خطر الفلسفة منذ فتوح الإسكندر ، وأنها فلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، فعرفوا نبوغ المغلوبين ، وأخذوا عنهم أسباب الحضارة المادية والعقلية ومنها الفلسفة ، واصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ، ثم اصطنعها المفكرون المسلمون ، ودخلت المدارس في الشرق والغرب فكونت العقول وهيمنت على وضع العلوم [1] » .

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم — المقدمة — .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأدرك الكندي أثرها في تاريخ الفكر ، فجعل وكده أن لا يحرم العقل العربي من اشعاعها فنقل أصفى ألوانها وخاض في بحور شتى من العلوم فكان بحق معلمّ (انسيكلوبيدي) التفكير . « أراد لأمته وهي في فجر نهضتها العلمية ألاّ تكون متخلفة عن غيرها من الأمم فحقق الكثير من الأمنيات وترك للفكر العربي تراثاً خالداً ما زال موضع دراسة وتحقيق المفكرين والعلماء في الشرق وفي الغرب .

ونختم كلمتنا فنقول إن أسلوب الكنديّ وان لم يرتفع الى أساليب البلاغة الاّ أنه تميز بالدقة والسهولة ، ولا يُطلب من العالم الذي ينقل الينا في بدء عصور النهضة أنماطاً من شتى ألوان العلوم الا أن يكون أمينا في الترجمة وأن ينقل الآراء والفكر بدقة وسهولة ووضوح ، وهذا ما حاوله الكنديّ في شتى رسائله وكتبه .

سامي الكيالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net